**دورة العلوم الرمضانية**

**المؤمن والقرآن في رمضان**

**فضيلة الشيخ/ محمد المعيوف**

ولهذا وصفه الله تعالى بأنه "كريم"، وتأملوا يا إخواني كيف أن الكرم اكتنف هذا القرآن، فأولًا: أُنزل هذا القرآن من الرب -سبحانه وبحمده-، وربنا الكريم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: 6]، ثم نزل به جبريل الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ \* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 19، 20]، ونزل به على محمد الكريم -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ \* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ﴾ [الحاقة: 40، 41]، وحتى الصُّحف التي هو فيها وُصِفَت بأنَّها مكرمة، قال تعالى: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ [عبس: 13]، والملائكة الذين في أيديهم هذه الصُّحف وُصِفوا بأنَّهم كرام، قال تعالى: ﴿بِأَيْدِي سَفَرَةٍ \* كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: 15، 16]، ولم يبقَ إلَّا أنتَ يا عبد الله! فهل تكون كريمًا مع كتاب الله -عزَّ وجل؟!

يكون الإنسان كريمًا بعدَ توفيق الله -سبحانه وتعالى- وتيسيره له وإعانته عليه، ثم فعله الأسباب، وجدِّه واجتهاده في هذا الأمر العظيم، فينال بذلك الكرم، يقول -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البررة».

أمَّا إذا كان الواحد بخيلًا مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- قراءته للقرآن قليلة، وإذا قرأَ قرأ بقلب غافل لاهٍ، فإنَّ الكريم لا يمكن أن ينزل ضيفًا على اللئيم البخيل بحال، بل يترحَّل عنه ويتركه إلى غيره.

ولهذا -يا إخواني- ونحن على أبواب هذا الشهر المبارك الكريم؛ ما حالنا مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ؟!

كل واحد منَّا يقرأ اليوم وقد فُتحت القراءة على الناس حتى لا تكاد تجد مَن لا يقرأ إلا قليلًا، وحتى مَن لا يقرأ يستطيع أن يسمع القرآن في كل وقتٍ وحينٍ، فليس لنا حجَّة -يا إخواني- في التهاون بالقراءة، وكل واحدٍ منَّا يتمنَّى أن يكونَ أحسنَ الناسِ مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، هذه أمنية تراود كل مسلم، فما الذي يمنع الإنسان إذًا من الإقدام على قراءة كتاب الله تعالى وتدبره والنَّظرِ فيه؟!

ليس ثمةَ شيءٌ يمنعه -يا إخوان- إلا انشغاله بأمورٍ تلهيه وتشغله وتنسيه؛ فيتشاغل بفضول المباحات، وربما بالتَّوافه والمحقَّرات من الأعمال عن معالي الأمور وأكبرها.

كذلك إذا امتدَّت عينك -يا عبد الله- إلى الدنيا؛ فإنَّ ذلك يكون على حساب إقبالك على الخير وحرصك عليه ورغبتك في القرآن وغيره، كما قال ربنا -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: 87]، قاله -عَزَّ وَجَلَّ- في معرض الامتنان به على محمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، ثم قال بعدها: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [الحجر: 88]؛ فما العلاقة بين الآيتين؟

العلاقة بين امتنان الله على رسوله بالقرآن وقوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ هي: الاستغناء بكتاب الله، فإذا استغنى الإنسان بكتاب الله فلا تمتدُّ عينه إلى الدنيا وما فيها، يعطيه الله -سبحانه وتعالى- الغنى الحقيقي، وهو غنى القلب، فإنَّ الغنى والله ليس عن كثرة الأموال، كما قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، إنما الغنى غنى القلب»، والقرآن إنما يكون في القلب، فهذا مكانه الأصلي وليس على اللسان، ولهذا قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ \* نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ \* عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: 192: 194]، على قلب محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فإذا نزل القرآن في القلب أغنى صاحبه عن أن تمتد عينه إلى الدنيا وما فيها، وإذا كان لو أعطي القرآن استغنى به عن الدنيا فإذا امتدت عينه إلى الدنيا حصل منه التقصير مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فهذا أمران متلازمان.

جاء في الأثر في صحيح مسلم عن نَهِيكُ بن سنان، أنه جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال له: كيف تقرأ هذا الحرف: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: 15] أو "ياسن"؟ فقال عبد الله بن مسعود: "أكل القرآن أحصيتَ غير هذا الحرف؟".

فقال الرجل: إني لأقرأ المفصَّلَ في ركعةٍ.

وكما تعرفون أنَّ المفصَّل -في المشهور: من سورة ق إلى سورة الناس.

فهذا الرجل يقول: أقرأ المفصل في ركعة واحدة، يعني أنه ملمٌّ بكتاب الله.

فقال ابن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: "هذًّا كهذِّ الشِّعر ونثرًا كنثر الدَّقل؟ إنَّ أناسًا يقرؤون القرآن لا يُجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب ورسخ فيه نفع" والدَّقل: رديء التمر.

وهنا السر يا إخوان؛ عندما يشتكي الكثير من الناس، أنه عندما يأتي شهر رمضان يأتي الإنسان بنشاط، سواء في الصلوات أو في القراءة، وهذا أمر يُلاحظ، فالأيام العشرة الأولى تجد نشاطًا منقطع النَّظير! ثم يحصل فتور، ثم يعود النشاط إلى حدٍّ ما في العشر الأواخر، ويظل الإنسان بين إقبال وإدبار، وقد يقول قائل: إن هذا أمر طبيعي في النفوس البشرية!

نقول: صحيح، الإنسان تأتيه أوقات ينشط فيها، لكن في رمضان لا ينبغي أن يكون للفتور مكان، والشهر عظيم، والأعمال فيه مضاعفة، ومحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يجتهد في رمضان ما لا يجتهد في غيره، ولا ريب أن اجتهاد الإنسان حسب المواسم أيضًا، وكان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يخلط العشرين بصلاةٍ ونومٍ، فإذا دخلت العشرُ شمَّرَ وشدَّ المئزر، فكان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يعتزل أهله ويعتكف في العشر الأواخر، فللمواسم تأثير، ومَن لا يتأثر بالمواسم ولا تحرِّك فيه ساكنًا عليه أن يُراجع نفسه، ولهذا كان من نعمةِ الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن أتاح للناس مواسم للخيرات تضاعف فيها الحسنات وتقال فيها العثرات، فإذا وُفِّقَ الإنسان لاغتنام هذه المواسم والاستفادة منها فإن هذه أمرةٌ طيبةٌ، ولعل الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- أن يكون قد أعانه ووفَّقه، أما إذا مرَّ الموسم وكأنَّ شيئًا لم يمر، وقضى رمضان في سهرِ ليلهِ ونومِ نهاره ولا حول ولا قوة إلا بالله!

فعلى الإنسان أن يفتِّش في عيوبه، وينظر في نفسه، ويُحاسب نفسه محاسبةً دقيقة، فيكون فيها السَّائل والمسؤول، وبالتالي يحكم على نفسه، ويعرف تقصيره، فحتى يستمر الإنسان على العمل في رمضان وبعدَ رمضان -وهذه مسألة كبيرة أيضًا- نشكو حالنا إلى الله تعالى فيها، ويشتكي كثير من الناس ويتساءلون: عندما يدخل رمضان نعقدُ العزمَ على ان نجدِّدَ ونقوِّي الصِّلَة بربنا -عَزَّ وَجَلَّ- في صلاتنا وقراءتنا، حتى إذا مضت أيامٌ من رمضان -وليس الشهر كله- أحسسنا بالفتور الشديد، حتى إذا مضى رمضان عدنا إلى سالف العهد، فما الحيلة إلى أن يستمر الإنسان في عبادته وطاعته لربه؛ فإن الإنسان مكلَّف بهذه الطاعات، ومأمور بهذه العبادات ما بقي له في الدنيا نفسٌ؟!

قال عيسى -عليه السلام- وهو لَمَّا يزال في المهد: ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: 31]، وقال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: 99]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102] فنحن مأمورون بالثبات والمداومة على هذه العبادات، ونحن في زمانٍ كثُرَت فيه المشاغل واللهيات والمنسيات، وكثُرت فيه المؤثرات أيضًا، ويظل الإنسان يتساءل ويسأل: ما الطريق إلى أن يدوم الإنسان على هذه الأعمال الصالحة؟

قبل كل شيء: توفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ- للعبد، وسؤال العبد لله التوفيق والإعانة والثبات والسداد، وهذا الشهر -كما لا يخفاكم- شهر الدعاء كما ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ.

والطريق إلى ذلك: أن تكون أعمالك صادرة من قلبك، احرص يا أُخيَّ عندما تقرأ القرآن أن تقرأ بلسانك وبقلبك، فإنَّه إذا كانت القراءة في اللسان فقط لا يكون أثرها على النفس والقلب كثيرًا، وبالتَّالي سرعان ما يتركها الإنسان ويعود إلى هجر كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وقد اشتكى المصطفى -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مَن يهجرون كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَارَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: 30].

إخواني؛ مثل كتاب الله يُهجَر؟!

كتاب الله -يا إخواني- خليقٌ بأن يُفني العبد فيه عمره قراءة ونظرًا وتدبُّرًا وتأمُّلًا وتقرُّبًا إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ففي القرآن كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89]، ولهذا سمَّاه ربُّنا "الذِّكر"، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ [فصلت: 41]، وقال: ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58].

وسُمِّيَ القرآن "ذكرًا" لأربعة أمور:

أولًا: أنَّه شرفٌ لمَن انتمى إليه وانتسبَ إليه، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: 44]، فهو شرف وذكر لمحمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وأمَّته، ولكن مع هذا التشريف العظيم من الرَّبِّ الكريم سوف يُسألون عنه.

ولهذا قال عبد الله بن عمر: "عليكم بالقرآن، تعلَّموه وعلِّموه أولادكم، فإنَّكم عنه تسألون، وبه تُجزونَ، وكفى بالقرآن واعظًا".

وأقف -يا إخوان- عند هذه الكلمة لعبد الله بن عمر "علِّموه أولادكم"، فيتأكَّد علينا أن نعلِّم أولادنا القرآن، في وقتٍ عظُمَ الخطر وجلَّ الخطبُ فيه على الصغير قبل الكبير، وفي وقتٍ صارَ الصغير فيه يسمع كل شيءٍ ويرى كل سيء، ربما لا يشعر أهله بما يرى وبما يسمع! في وقتٍ يجول فيه الأطفال بالعالم كله، ويسمعون كل شيء، وربما يكون هذا الكلام موجَّهًا إليهم قصدًا من قِبَل أعداء الإنسان، فما الوسيلة للحفظ؟

إذا كان الأمر عظيمًا فالوسيلة للحفظ أعظم، وهذه الوسيلة هي كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فإذا رُبِّيَ الصغير على القرآن والانتساب إلى القرآن وحفظ ما تيسَّر من القرآن؛ فإنَّ هذا -لا شكَّ- أمرٌ كبير، يحفظه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- به من هذه المنزلقات الخطيرة وهذه الأمور العظيمة.

ثانيًا: لأن فيه تذكير للقلوب ووعظًا لها وإيقاظًا لها، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: 45]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ \* قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 57، 58]، وهذه آية ينبغي الوقوف عندها، ذكر الله تعالى فهيا جملةً من أوصاف هذا القرآن العظيم وفوائده العظيمة:

الصفة الأولى: أنَّه موعظة، قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فهو موعظة لكل الناس حتى غير المسلم.

وفيه إشارة إلى أن القلوب تحتاج إلى الوعظ -يا إخوان-، فيحتاج القلب إلى ما يذكره، فإن القلب ينسى ويلهو ويغفل، فالقرآن أعظم ما تُوعَظ به القلوب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ \* اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: 16، 17].

ما العلاقة بين الآيتين؟

الجواب: الحياة للقلوب كما الغيث حياةٌ للأرض.

وقد يقول قائل: ما علاقة ذكر إحياء الأرض بعدَ موتها بذكر كتاب الله؟

نقول: هذا نوع من التشبيه يسمِّيه أهل البلاغة تشبيه ضمنِّي، يُشبِّه الله تعالى القرآن بالغيث، فالغيث ينزل على الأرض وهي هامدة، قال تعالى: ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: 5]، وإذا نزل القرآن على القلوب أحياها، فصحَّت من سقمها، وعُوفيَت من أجوائها، وأحيا الله تعالى به قلوب الموتى، فعظوا -يا إخوان- قلوبكم بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وإذا أردتَّ لقلبك أن يتحرَّك فلتكن القراءة من القلب، وليكن مع القراءة أمرها الكبير ووصفها العظيم وهو التدبُّر، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: 29]، والتدبر هو: التَّفكُّر والتَّأمُّل في الآيات والنَّظر فيها للوصول إلى معانيها وحكمها وأحكامها وأسرارها، فإذا تدبَّر الإنسان كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- فإنَّ القلب لا شكَّ يتأثر ويستفيد من هذا فائدة عظيمة.

وقد ذكر الله تعالى التدبر في القرآن في أربع آيات:

- في الآية السابقة.

- وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: 82].

- وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]، فأقفلت هذه القلوب حتى ما عادَ القرآن يؤثر فيها، وهذا يدل على عظيم تأثير هذا القرآن في القلوب.

- وفي قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [المؤمنون: 68]، وفيها حثٌّ على تدبر القرآن وتأمُّله والنَّظرِ فيه، فإذا تدبَّرتَ وتأمَّلتَ فستجدُ في قلبك حياةً، وتجدُ في قلبك نشاطًا مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- يستمر معكَ طيلةَ عمرك، لأن للقرآن لذَّة، ولكن لا يجدها الإنسان بمجرد الرَّغبة، وإنما يجدها بعد توفيق الله -عَزَّ وَجَلَّ- بمعالجة النفس مجاهدتها، والاستعانة بالله تعالى عليها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17]، فالقرآن مُيسَّر والحمدُ لله، ولكن تبقى الأسباب منك، ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، يقول العلماء: هل من طالب علمٍ فيُعان عليه؟!

وقال في الآية الأخرى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: 57]، فالقرآن شفاء لما في الصدور، فهو وقاية من الأمراض، وعلاجٌ لها، وهذا دليل على أنَّ القلوب يعتريها أمراض، كما قال الله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10]، وقال: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: 32].

وأمراض القلوب ترجع إلى مرضين:

الأول: أمراض الشهوات، كما في قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾، خاطب الله -عَزَّ وَجَلَّ- أمهات المؤمنين والنساء عامَّة. والمرض هنا: هو مرض الشهوة.

الثاني: أمراض الشبهات، كأمراض المنافقين، كقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: 10].

جميع الأمراض شفاؤها في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، لأن ربنا قال: ﴿وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ﴾، وقال: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: 82]، وقال: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: 44]، فإذا كانت القلوب تتعرض لأسقام، وأمراضها خطيرة عظيمة، ليست الأمراض الحسيَّة التي يُشفَى صاحبها، وإن لم يُشفَ فغايته الموت، والموت غاية كل حيٍّ، لكن الموت الأخطر والأدهى والأمر هو موت القلوب، قال تعالى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: 122].

قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: 185]، أي: هداية لكل الناس.

وقال في أول سورة البقرة: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2].

فكيف نجمع بين الآيتين؟

الجواب:

الآية الأولى: هداية الناس هداية الدلالة والإرشاد والبيان.

الآية الثانية: هي هداية التوفيق والتَّسديد والإعانة للمتقين.

والمقصود: أن القرآن هو أعظم وسيلة وطريق للهداية، قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 102]، يثبتهم على هدايته، ويكون سببًا لهدايتهم، وفيه بشائر.

فأنت إذا جاءك هاتف من شخص تعرفه وكان معه بشارة لك؛ فأنت تفرح فرحًا شديدًا؛ فكيف إذا كانت البشارة من الله -عَزَّ وَجَلَّ!

وربنا يصف القرآن كثير من الآيات بأنه بُشرى، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: 89]، بُشرى لهم بما بشَّرهم الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- به من الخير في الدنيا والآخرة، إلى أن تنتهي البشارة ببشارةٍ كبرى، قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البقرة: 25].

ولعلكم ترون في أجهزة التواصل مقاطع لأناس ليسوا مسلمين ولا عرب، يسمع القرآن فتهتزُّ نفسه وتذرف عينه، ولعلكم جميعًا شاهدتم هذا، وهذا يدل على عظم القرآن.

وكان في المسجد عامل لا يتكلم العربيَّة إطلاقًا، ولاحظتُ أنه يحب الفائدة، وإذا قيلت له يُتقنها وهو لا يعرف اللغة العربية، فسألته: عند مَن تعمل؟

فقال: فلان، وهو رجل فاضل من الإخوة الخيار الصالحين.

فلما لقيتُ هذا الرجل قلت له: هذا العامل الذي عندك يعتنى به ويُوجَّه، فقد لاحظتُ أنه يحب الفائدة، وإذا سألته بعد يوم أو يومين أجده قد ضبطها وأتقنها.

فقال لي: هذا يحفظ القرآن كاملًا.

قلت: سبحان الله! لا يتكلم بكلمة عربيَّة ويحفظ القرآن كاملًا!

ويتملَّككَ العجب من هذا؛ ولكن يزول عجبك إذا استحضرت أن القرآن كلام الله -عَزَّ وَجَلَّ- وهذا من أسراره وليس من أسرا البشر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

ولما راح الجن يطوفون الآفاق ويبحثون عن السبب الذي من أجله حُجبَت السماء، فمرَّ نفرٌ منهم بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وهو يقرأُ آيات، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ \* قَالُوا يَاقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: 29، 30]، آيات سمعوها من كتاب الله مرَّة واحدة فأثَّرت فيهم، فأسلموا وراحوا دعاة إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فهذا هو تأثير القرآن، تأثيره في الهداية عظيم، والهداية غالية والله، فمَن منَّ الله عليه بالهداية فليحرص على الثبات، ومن أعظم الثبات: كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- أن تقرأه بلسانك وقلبك، يتواطأ اللسان مع القلب في قراءة كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- فترى من الثبات والإيمان وقوَّة العقيدة واليقين العجب العجاب.

ولهذا يُنصح كل مسلم أن يكون له وردٌ من كتاب الله في الليل، يقول -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: 6]، قال العلماء: لا ناشئة إلا بعدَ نومٍ.

ومعنى قوله: ﴿أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي يكون اللسان أشدُّ تواطئًا مع القلب، فيُحس الإنسان بلذة القرآن وتأثير القرآن.

قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [آل عمران: 113]، أي: يقرؤون القرآن في الليل، فلا ينبغي لمسلم أن لا يكون له قراءة من كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- في الليل، فقراءته في الليل عظيمة، ولهذا قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تعاهدوا القرآن، فوالذي نفسي بيده لهو أشد تفلُّتا من الإبل في عقلها»، وقال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إذا قام صاحب القرآن فقرأه بالليل والنهار ذكره، وإن لم يقرأه نسيه»، وهذا فيمَن يحفظ.

وقوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، فالقرآن رحمة عظيمة من الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فنزوله رحمة، وبقاؤه رحمة، وإقبال المسلم عليه رحمة، وسماعه رحمة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: 204]، قال بعض السلف: "أقرب الناس إلى رحمة الله مَن يسمع القرآن"، فكيف بمَن يتلوه!

وقال تعالى ممتنَّنًا على محمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [القصص: 86]، فنزوله كان رحمة من الله عليك.

وقال تعالى: وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا \* إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [الإسراء: 86، 87]، فابتداء نزوله رحمة، واستمراره رحمة، ولو شاء الله لذهب بالقرآن ولكن بقاؤه كان رحمة؛ فإقبالك عليه -يا عبد الله- في رمضان وفي العمر كله رحمة، لا نريد الإقبال في رمضان فقط فإذا مضى رمضان عدنا إلى الكسل والفتور، وعدنا إلى الجوالات، وعدنا إلى الأمور التي تهلك الأوقات!

والإنسان ما لم يستفد الشيءَ في وقته ما أظنه يستفيده في غير وقته.

وكما يُقال: الإنسان ابن لحظته، فما مضى فات وانتهى، والمستقبل الله أعلم به.

وقيل:

ما مضى فاتَ والمؤمَّل غيبٌ \*\* ولك الساعة التي أنت فيها

فما عندك إلا هذه اللحظة التي أنت فيها، فما مضى فات، وما بقي ما تدري ما بقي لك في هذه الدنيا.

فإذا كان الإنان بهذه المثابة بين عمرٍ مضى لا يدري ما الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- صانع فيه، وعمر بقي ما يدري ما الله تعالى فاعل فيه، فخليقُ بالإنسان أن يُجدَّ في لحظته دائمًا وأبدًا، وأن يكون مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، طمعًا ورغبةً في موعظته وشفائه وهدايته ورحمته.

قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، يفرح الإنسان بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وعلامة فرحه إقباله عليه، وعلامة فره شوقه إليه إذا هو شُغل عنه بغيره، ويجد في قراءته اللذة والأنس والفرح والبشر والطمأنينة، كما قال -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ [الرعد: 36].

والفرح في القرآن نوعان:

فرحٌ محمود: هو الفرح بطاعة الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وأعظمها تلاوة كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وفرح الإنسان بأعمال الخير من صلاة وصيام وزكاة، وسائر أعمال الخير، كما ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- في هذه الآية ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: 58]، وتقديم الجار والمجرور هنا يفيد الحصر، وهذا الذي ينبغي أن يكون فيه الفرح.

الفرح المذموم: هو الفرح بحطام الدنيا وزينتها وزخرفها، فإن الفرح بمثل هذا إذا كان فرح أشرٍ وكبر فرح مذموم، قال تعالى: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص: 76]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: 44]، فهذا هو الفرح المذموم -أعاذنا الله وإياكم منه.

ولما خرج عمر بن الخطاب -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يسم إبل الصدقة، وكان معه غلام له، فلما رآها هالته لكثرتها وحسن مظهرها، فالإبل هي أنفس الأموال عند العرب، فقال الغلام: هذا فضل الله ورحمته. فقال عمر: "كذبتَ" يعني أخطأت بلغة أهل الحجاز، ثم قال عمر: "فضل الله ورحمته في القرآن"، وتلا الآية: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: 58]، فرحهم بالقرآن خيرٌ مما يجمعون من الدنيا وحطامها.

إذًا؛ القرآن أعظم الذكر.

ذكرنا أن القرآن سُمي "ذكرًا" لأربعة معان:

الأول: الشرف.

الثاني: التذكير.

الثالث: أن الله تعالى ذكر فيه كل شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: 89].

يقول مسروق بن أجدع -رحمه الله: "كل ما سأل عنه الصحابة موجود في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- لكن فهومنا قصُرَت عنه"، فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنزل هذا القرآن وذكر فيه كل شيء، ولكن يحتاج إلى مَن يتأمَّل ومَن يتدبَّر.

الرابع: أنَّه أعظم الذكر وأفضله، فالأذكار كثيرة كالتسبيح والتهليل، وهي أذكار عظيمة فيها فضل وخير كثير، ولكن أعظمها كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].

فيتأكَّد على المسلم أن يقرأه وأن يكون له هدفٌ من قراءته، كل إنسان في هذه الدنيا إذا لم يكن له هدف تضيع أعماله، ولا يرى لها نتيجة، فيرسم هدفًا في ذهنه يسعى إليه، فالطالب له هدف، يدرس ويُكمل دراسته ويستفيد علمًا، ثم ينخرط في سلك العمل بعد ذلك، فينتفع وينفع، وطالب العلم له هدف يسعى إليه، قارئ كتاب الله أيضًا له هدف يسعى إليه، فما هو هدفه؟ هل هدفه مجرد القراءة هذًّا هذَّ الشعر كما قال ابن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؟! أم أن له غايات ومقاصد نبيلة وعظيمة؟

فمن أهدافك -يا عبد الله- في قراءة كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ: أنَّك تطلب العلم، وكتاب الله أعظم مصدر للعلم، لكن شاعَ بينَ الناس وانتشرَ أنهم يقرؤون القرآن لطلب الأجر فقط -وهذا مطلب كبير وأحد المقاصد التي تذكر- فلا شكَّ أن الإنسان يسعى إلى الأجر ويسابق إليه ويحرص عليه، فالقرآن فيه أجر عظيم لا يخفاكم، لكن في سبيل طلبه الأجر يُكثر من القراءة وتكون قراءته هذًّا، وبالتالي يقصر في الجانب الكبير العظيم وهو طلب العلم من كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ.

وقد ذكر الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- المهمَّة التي جاء بها محمد والتي من أجلها أنزل الله عليه الكتاب -صلوات الله وسلامه عليه- في قول الله -عَزَّ وَجَلَّ- في دعوة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: 129]، إذا قرأنا هذه الآية فماذا نأخذ منها؟

الجواب: أننا نتلو القرآن.

مع أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- بيَّن أن مهمَّة محمد -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هي تلاوة الكتاب أولًا، ثم التَّعليم، فقال: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، فيتعلم الإنسان كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- ويتعلَّم حِكَمه وأحكامه، ما يفتحه الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- عليه من العلوم التي لا تنتهي، ثم تكون نتيجة القراءة والتعلم: التزكية؛ حينها تحصل التَّزكية للنفس، وتحصل الطهارة للنفس، وتزكية النفوس عظيمة وهي مطلب، ولهذا وردَ في الدعاء: «اللهم آتِ نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير مَن زكاها، أنت وليها ومولاها»، وأعظم وسيلة لتزكية النفوس هي تلاوة كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- وتعلمه، وقد ذكر الله تعالى هذا المعنى في كتابه في أربع آيات:

الآية الأولى: وهي الآية السابقة في سورة البقرة.

الآية الثانية: قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151].

الآية الثالثة: وقوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2]، كانوا في ضلال قبل مجيء القرآن، فالإنسان دون القرآن في ضلال! والإنسان دون القرآن في غفلةٍ كما في قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: 3]، فالإنسان دون القرآن في جهل، قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: 52]، والخطاب لأشرف الخلق -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، والمعنى لا يرجع إلى تفاصيل الإيمان، وإلا فكان -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مؤمنًا وعلى دين أبيه إبراهيم.

ودون القرآن -يا إخوان- الإنسان في ظلمة، وهذا خطر إذا فاته نور القرآن، قال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ \* يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: 15، 16]، وسبل السلام، أي: جميع طرق الخير، فـ "سبل" مضاف، والمضاف يقتضي العموم، فيعم جميع الطرق، وجميع طرق الخير في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [المائدة: 16]، يخرجهم من الظلمات بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ.

فدون القرآن لا حياة للإنسان يا إخوان، وكم من الناس تمر عليه الأوقات وهو لم ينظر في كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- ولم يتلُ منه آية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

الآية الرابعة: قوله -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: 164]، منَّةٌ من الله عظمى، ونعمة من الله كبرى، هذا القرآن الذي بين أيديكم فإيَّاكم أن تفوتكم هذه النعمة، فإنَّ العمر فرصة، والفرصةُ إذا مضت لا تعُد، ولهذا حمدَ ربُّنا -عَزَّ وَجَلَّ- نفيه بإنزال هذا الكتاب في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا \* قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ﴾ [الكهف: 1، 2]، فحمد نفسه -عَزَّ وَجَلَّ- بإنزال هذا الكتاب، وهو تعالى إنَّما يُحمَد بآلائه ونعمه التي يتفضَّل بها على عباده، وبما له من صفات الجلال والجمال والكمال -سبحانه وبحمده- فدلَّ على أنَّ القرآن نعمة، وأي نعمة أعظم من نعمة الإسلام! فمَن فاتته هذه النعمة فهو على خطر!

ومَن تركَ القرآن فربما يُبتلى ويُعاقَب، ومن القواعد المعروفة: أنَّ مَن تركَ الخير ابتُليَ بالشَّر، مَن تركَ الطَّاعات ابتُليَ بالمعاصي، ومَن تركَ إنفاق المال في طرق الخير ابتُليَ في إنفاقه في طرق الشَّر، ومَن تركَ أحسنَ الحديث ابتُلي بلهو الحديث، قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: 23]، فاللهم ارحمنا برحمتك إنَّك أنت أرحم الراحمين.

يقول ربنا -عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الم \* تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ \* هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ \*الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ \* أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [لقمان: 1: 5]، اللهم اجعلنا جميعا من المفلحين.

ثم قال بعدها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان: 6]، لأن الفاجر والعاصي حتى الكافر؛ اشتروا الحياة بالآخرة، فجعلوا الآخرة ثمنًا والحياة الدنيا هي الغاية، فغايته لا تتجاوز دنياه التي يعيش فيها، فهذا اشترى لهو الحديث!

ما العلاقة بين الآيات؟

التفسير يحتاج الإنسان أن ينظر فيه إلى الآيات التي قبل الآية التي ينظر فيها والآيات التي بعدها، وينظر إلى مقاصد الشريعة فيما يقرأ وفيما ينظر.

ربنا قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ يعني: فئة من الناس، وهذا يعني أن هناك فئة أخرى خير من هؤلاء.

والعلاقة بين الآيات: أنَّ من تركَ أحسنَ الحديث ابتليَ بلهو الحديث، فلما ترك القرآن الذي هو هدى ورحمة ابتلي بالقيل والقال والغيبة والنميمة، ولهو الحديث الذي قد يصل إلى الكفر بالله -عَزَّ وَجَلَّ.

ثم قال بعدها: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ [لقمان: 7]، عياذًا بالله! فهو لا يريد أن يسمع القرآن، يريد أن يسمع القيل والقال ولهو الحديث، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

إذًا؛ المقصد الكبير من تلاوة كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ: أنَّك تتعلَّم.

الأمر الثاني: العمل بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فغاية الإنسان من قراءته للقرآن ليس اللفظ فقط وليس المعنى فقط وليس العلم فقط؛ وإنما هذه الأمور كلها وسائل إلى العمل به، فيعمل الإنسان بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، هذا كان هدي السلف -رحمهم الله- وهذا هو ما نريد أن نرجع إليه، لأنَّ كثير يقرؤون القرآن ويُقال إنهم حفظوا القرآن!

جاء رجل إلى أبي الدرداء وقال: "إن ابني هذا جمع القرآن". فالأب يفرح بأولاده عندما يراهم حفظةً لكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ.

فقال أبو الدرداء: "إنما جمعَ القرآن مَن سمع له وأطاع". يعني مع حفظه يسمع كلام ربنا ويطيعه -عَزَّ وَجَلَّ- فيما يأمر به وينهى، فهذا هو العمل.

فبعدَ أن يتعلم الإنسان يعمل بما علم، وهذا منهج تحتاج الأمة بأكملها إلى أن ترجع إليه أردنا أن يكون لهذا القرآن الأثر الكبير علينا جميعًا.

كلكم تحفظون كلام أبي عبد الرحمن السُّلمي والذي يحكي فيه منهج السلف -رحمهم الله تعالى- قال: "حدثنا أصحابنا الذين كانوا يتقنون القرآن عبد الله بن مسعود وعثمان أنهم كانوا إذا أخذوا عشر آيات من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لم يجاوزونهنَّ حتى يتعلمونهن وما فيهنَّ من العمل". قالوا: "فتعلمنا القرآن والعلم والعمل"، فتعلموا القرآن حفظًا، والعلم فهمًا، والعمل تطبيقًا. وهذا هو المقصود من القرآن، وهو العمل بكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ.

قال الأوزاعي -رحمه الله- كلمة ثمينة وجميلة، ومثل هذه الكلمات التي تمر بك من كلام السلف يحرص الإنسان على أن يحفظ شيئًا منه، قال شيخ الإسلام لابن القيم فائدة في التفسير عبارة عن كلمات قليلة لكنها عظيمة، فقال: "هذه كلمات تستحق رحلة"، وتعرفون كيف كان السلف يسافرون، فجابر ذهب ليسمع حديثًا من عبد الله أويس في الشام؛ فاشترى جملًا، وذهب شهرًا ليسمع حديثًا واحدًا، ونحن الآن -ولله الحمد- كل شيء بين أيدينا، فالجهاز بيدك الآن تستطيع أن تقرأ وتنظر، ولكن نعوذ بالله أن يكون الشيء وافرًا ونُحرم منه.

يقول الأوزاعي رحمه الله: "أُمروا أن يعملوا بكتاب الله؛ فجعلوا العمل به تلاوته".

يعني: جعلوا العمل فقط مجرَّد القراءة، لا تعلُّم ولا عمل!

وهذا ليس المنهج الصَّحيح مع كتاب الله، وما أُنزل القرآن لهذا، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29]، فإذا تدبُّروها تذكَّروا، ولهذا عطفَ التَّذكُّر على التَّدبُّر، فإنه نتيجته وثمرته.

ونقرأ ونقول دائمًا لأبنائنا وفي مساجدنا: «خيركم مَن تعلَّم القرآن وعلمه»، فتأملوا كلمة «تعلم»، لا مجرد أنه قرأ فقط، وإنما قرأ وتعلَّم ما قرأ.

فهذه مقاصد ينبغي لطالب العلم في رمضان وفي غير رمضان أن يحرص عليها.

ومن المقاصد العظيمة: الأجر، ففي الحديث: «مَن قرأ القرآن فله بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول "الم" حرف، ولكن ألف ولام حرف وميم حرف».

ومن المقاصد: الرَّغبة والطَّمع في شفاعة القرآن يوم القيامة، وفي كونه حجَّة لك يُحاجُّ عنكَ يومَ يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه، يحتاج الإنسان إلى مَن يشع له عند رب العالمين، فيأتي القرآن ليكون شافعًا لك، وليكون حجَّة لك، وفي الحديث المخرَّج في صحيح مسلم: «والقرآن حجَّة لك أو عليك»، وفي حديث أبي أمامة المخرَّج في صحيح مسلم أيضًا قال -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اقرؤوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، اقرؤوا الزهراوين -البقرة وآل عمران- فإنهما تأتيان يوم القيامةِ كأنهما غمامتنا -أو غييتان أو فرقان- من طير صواف تحاجان عن صاحبهما، اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة».

تأتي الزهراوين تحاجَّان عنك يوم القيامة، في ذلك اليوم العظيم، ذلك اليوم الذي يبلغ فيه الهول مبلغه، ذلك اليوم الذي لا يلو أحد على أحد، حتى أكرم الخلق الأنبياء كلٌّ يقول: "نفسي نفسي"، وأنت مع أهلك أولادك وآبائك كل يفر من الآخر، فيأتي كتاب الله ليكون شفيعًا له، وتأتي الزهروان لتحاجَّا عنك، أي مطلب مثل هذا المطلب! وأي مقصد وفائدة مثل هذا الأمر!

فخليقٌ بالمسلم أن يحرص على قراءة كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- طمعًا ورغبة في هذه الأمور.

لماذا سُميِّت البقرة وآل عمران بـ "الزهراوين"؟

الجواب: لأنهما تزهران وتضيئان وتنيران قلب صاحبهما وطريقه ودربه في الدنيا والآخرة، فهذا هو معنى الإزهار.

ومن الفوائد العظمى لكتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- وتلاوته: أن قارئ القرآن يناجي الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهل شيء أعظم من مناجاة الرب -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى!

هذه أمور لابد أن نستشعرها، فأنت وأنت تصلي تناجي الله -عَزَّ وَجَلَّ- وأنت تقرأ القرآن تناجي الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ فلو استشعر المسلم الموفَّق هذه الأمور في عباداته كان ذلك معينًا له على حضور قلبه، فالقلوب تشرد في شعب الدنيا وهمومها ومشغلاتها، فتحتاج إلى ما يجمع شتاتها وما يعين على حضورها في مناجاة ربها سواء في الصلاة أو في قراءة القرآن، وقراءة القرآن مناجاة للرحمن.

خرج النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عليهم وهم يقرؤون القرآن في الليل، فقال: «كلكم يناجي ربَّه، فلا يجهر بعضكم على بعض في القراءة».

فما أعظم كتاب الله! وما أعظم أن يُعنَى الإنسان به! فالحياة مع كتاب الله هي الحياة، واللذة بكتاب الله تعالى هي لذَّة القلوب، وليست لذة البطون يا إخوان، وهذه اللذة تحتاج إلى جهادٍ ومجاهدة، جهادٍ نفسك لا لغيرك، أن تجاهدها مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، وهذا الجهاد قد يطول، ولهذا قال ثابت البناني -رحمه الله: "جاهدت نفسي على القرآن عشرين سنة، ووجدتُّ لذته عشرين سنة"، هذا ثابت يُجاهد نفسه!

والمجاهدة ليست فقط على الحفظ، فقد يحفظه في أشهر، وإنما حقوق القرآن عظيمة وكبيرة، لو عرضنا أنفسنا عليها لوجدنا أنفسنا في غاية التقصير، حتى لا يظن مَن حفظ القرآن أنه انتهى من القرآن ويحتاج إلى أن ينتقل إلى علومٍ أُخر!

فهذا شعور يُحسُّ به حافظ القرآن في بداياته وفي سنِّ شبابه، أصلح الله الشباب ووفّقهم للخير.

ولو حرص الإنسان على القيام بحقوق القرآن لرأى أنه يحتاج إلى العمر كله مع كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ-، ولهذا كان بعض السلف يجلس في السورة سنوات، لقراءتها وفقهها والعمل بها.

قال بعض السلف: "كان الرجل منَّا إذا أخذ البقرة وآل عمران جدَّ فينا"، أي" صارَ ذا مكانة ومنزلة، لأنه يحفظ البقرة وآل عمران، وكثير من الناس يحفظها الآن، ولكن شتَّان ي إخوة!

فأقبلوا على كتاب ربكم بقلوبكم، وتدبروه -بارك الله فيكم- واعتنوا به في شهر رمضان المبارك، وضعْ لنفسك منهجًا من أول الشهر إلى آخره، فإن الإنسان إذا وضع له هدفًا أوشكَ أن يستمر عليه، أما إذا كان إذا فرغ قرأ وإذا ما فرغ ما قرأ فلا! فلا يكن القرآن آخر مهمَّاتك؛ بل ليكن في رأس أولويَّاتك، فاجعل لك وقتًا مع كتاب الله، واقرأ وتأمَّل وتدبَّر، واقرأ في الليل، وكرِّر بعض الآيات، فإذا مرَّب بك آية ردِّدها وكرِّرها، انظرْ إلى لفظها وإلى معناها، وإلى الأمور التي تعينك على تدبُّر كتاب الله -عَزَّ وَجَلَّ- فإنَّ القرآن إذا وقع في القلب ورسخ فيه نفع، كما قال ابن مسعود -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

اللهم يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام نسألك بأنَّنا نشهد أنَّك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصَّمد الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحد، ونصلي ونسلم على عبدك ورسولك محمد وآله وصحبه أجمعين، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصَّتك، اللهم إنَّا نسألك بأنَّا عبيدك بنو عبيدك بنو إمائك، نواصينا بيدك، ماضٍ فينا حكمك، عدلٌ فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسمٍ هو لك، سمَّيتَ به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك؛ أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء أحزاننا، وذهاب همومنا وغمومنا، اللهم ذكرنا منه ما نُسِّينا، وعلمنا ما جهلنا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذي يُرضيك عنَّا، اللهم اجعله حجَّة لنا يوم القدوم عليك، شافعًا لنا يوم الوقوف بين يديك، مشفَّعًا فينا يا ذا الجلال والإكرام يا أرحم الراحمين، اللهم انفعنا بما علمتنا، وعلمنا ما ينفعنا، وارزقنا وزدنا علمًا ينفعنا يا أرحم الراحمين، اللهم ألهمنا رشدنا وقنا شرَّ أنفسنا، اللهم أعنَّا في رمضان وفي سائر العمر على الصيام والقيام وتلاوة القرآن يا ذا الجلال والإكرام يا أرحم الراحمين، اللهم يا مقلب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك، اللهم يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا على طاعتك، اللهم إنَّا نسألكَ جنَّة الفردوس ونعيمها وما قرب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النار وجحيمها وما قرب إليها من قول وعمل، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا، وآخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا من خير والموت راحةً من كل شر يا أرحم الراحمين، اللهم أمِّنَّا في أوطاننا، اللهم أصلح أئمَّتنا ولولاة أمورنا، اللهم ارزقهم البطانة الصالحة النَّاصحة يا أرحم الراحمين، اللهم أصلح المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، اللهم مَن أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين في كل مكان بسوءٍ فأشغله في نفسه، واجعل كيده في نحره، واجعل دائرة السوء عليه يا أرحم الراحمين، واغفر اللهم لنا ولوالدينا ووالديهم وجميع أرحامنا وأصحابنا وجيراننا وإخواننا المسلمين الأحياء منهم والميتين بمنِّكَ وفضلك يا أرحم الراحمين، والحمدُ لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.